

النثر العربي في القرنين الثاني والثالث للهجرة

طه حسين

مجلة المقتطف

فبراير ١٩٣١

قسّم الأدباء ومؤرّخو الأدب العربي الكلام إلى منظوم ومَنثور، فزعموا أنّ المنظوم هو ما تقيّد بالوزن والقافية، والمنثور ما كان طليقاً منهما. ونشأ عن هذا أن انقسموا إلى قسمين:

(١) الشعراء وأنصارهم.

(٢) النثرين ومؤيديهم.

فذهب الأولون إلى أنّ الشعر يُكلّف صاحبه الوزن والقافية، وأنه ديوان العرب، فيه قيّدت مفاخرهم، وإليه يُرجع الفضل في تخليد ما لهم من فضائل قديمة، ثم مضوا إلى أكثر من هذا في أنه يلائم الموسيقى وموضوع الغناء، فهو مصدر اللذة الغنائية والموسيقية، وقالوا: إنّ الشاعر يُنشد واقفاً، بينما يتكلم النثر واقفاً أو جالساً على حد سواء؛ فهو أفضل من النثر.

وقال الآخرون: لا ننكر ما للشعر من فضيلة ومزيّة، ولكنّه لا يكون إلا فناً من فنون اللهو، بينما النثر يفي بضروريات الحياة؛ فهو لغة السياسة، ولغة الدين، ولغة العلم. وإنّ فقد يكون الشعر ذا مكانة، ولكنّ النثر أشدّ مَساساً بحاجات الإنسان، وأشدّ اتصالاً بما ينتجُه؛ فالنثر أفضل من الشعر.

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأدب الضخمة من خلاف بين الشعراء والكتّاب وأنصار كل منهما، ومصدر هذا أن الذين يدرسون الأدب العربي لا يُقدِّرون مكانة الشعر ومكانة النثر من الحياة بقدر ما ينبغي؛ فالشعر ضرورة من ضروريات الحياة في طور من أطوارها،

فإن انقضى هذا الطور أصبح الشعْرُ عاجزاً عن أن يقوم بشيء من ذلك، وأصبح النثر خليفته، يُصور الأشياء الجديدة.

والشعر الذي كان ضرورة أولاً يُصبح في الطور الثاني ضرباً من الفكاهة والتّرف، والحياة لا تستطيع أن تستغني عن كليهما.

وكذلك عندما نلاحظ تاريخ الأمم التي كان لها حياة أدبية، وكان لها شعْرٌ ونثرٌ، نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعراً، وأن النثر قد وُجد فيها قبل أن يُوجد الشعر بزمانٍ طويل — وإذا قلتُ نثراً فلا أعني لغة التّخاطب، إنما أقصد النثر الذي يفهمه الأديب — فالأمم التي لها أدب قبل أن تُعبّر عن عواطفها وميولها بالنثر عبّرت عن لذتها وآلامها بالشعر، وكان الشعر هو لسانها الأدبي. فلما تطوّرت هذه الأمم وارتقى عقلها وتغيرت نُظمها السياسية والاجتماعية واتصلت بغيرها من الشعوب، ونشأ عن ذلك أن وُجدت فيها أفكار وآراء لم تُوجد عندها من قبل، واحتاجت إلى أن تُنظّم هذه الأفكار والآراء، وإلى أن تُصوّرَها وتُعلنها فعجز الشعر عن أن يُعبّر عنها، واضطرت إلى النثر.

لذلك عندما نلاحظ تاريخ الأمم، كالأمّة اليونانية مثلاً، نراها أولاً شاعرة تنشئ الشعر قصصياً، ثم غنائياً، ثم تمثلياً. ولا ينشأ النثر عندها إلا في وقت الاضطراب السياسي، وتتغير فيها نُظم الحكم والحياة الاجتماعية، وتشتدّ الصلة بين اليونان والأمم الشرقية والعربية. وتنشأ أفكار جديدة؛ منها: السياسي، ومنها الفلسفي، ومنها الديني. واضطرت أن تُعبّر عن هذا كله؛ فنشأ النثر، ومثل هذا نجده عند الأمّة الرومانية، وهذا هو الذي نجده عند الأمّة العربية في العصر الأول قبل الإسلام.

كان العرب أمة شعرٍ، لها حياتها الاجتماعية والسياسية الخاصة، تعتمد في هذين النوعين من الحياة على العاطفة والشعور، أكثر من

اعتمادها على الحكمة والرؤية، تندفع بحكم هذا الشعور إلى الحرب أو السلم أو الخسومة، أو إلى أية ناحية من نواحي الحياة الجاهلية. فإذا وصلت من ذلك إلى ما تريد وتأثرت بهذه المؤثرات نطقت بهذا شعراً، ولما لم تكن شديدة الاتصال بغيرها من الشعوب، ولا تعرف كثيراً عما عند هذه الشعوب ظلت على حالتها هذه، فلما جاء الإسلام تغيرت الحياة العربية تغيراً تاماً؛ تقوّض النظام السياسي وحلّ محل النظام القديم نظام جديد يعتمد على وحدة الأمة العربية، وإخضاع الأمم الأجنبية. ونشأ عن هذه الحياة نظم للحكم لم تكن معروفة من قبل: وجدت الخلافة، وتغيّرت الحياة الاجتماعية، وتغيّر نظام الزواج والطلاق، وعلاقة الجماعات.

ثم كانت الفتوح واتصل العرب بالأمم الأخرى اتصالاً أخذ يشتد ويقوى؛ حتى أصبح اختلاطاً ثم امتزاجاً، ونشأ عنه أن اطلع العرب على ما كان لهذه الأمم من: آراء، وأفكار، وديانات، وعلوم، وفلسفة. وأخذوا منه قليلاً قليلاً، ونشأ عن هذا أن تغيرت حياتهم العقلية، والشعرية، والعاطفية، والاجتماعية. فبعد أن كانوا متأثرين بالحس والشعور أخذوا يفكرون ويتروون، وظهرت أمامهم مسائل ومشكلات جعلتهم يفكرون ويلتمسون الحلول لتلك المسائل المعقدة؛ فنشأ عن هذا كله أن تغيرت الحياة، وتغيرت الموضوعات فاستلزم أن تتغير العبارات التي يعبرون بها عما في أنفسهم، ونشأ لهم لسان جديد لم يكن لهم من قبل، وهو النثر الذي يعبر عن المعاني بدون القيود الشعرية.

فتقسيم الكلام إلى نظم ونثر تقسيم بسيط ساذج يمكن الاعتماد عليه إذا بسطنا الأشياء، ولكن الأديب الذي يدرس تاريخ العرب، إنما يعتني بالكلام عندما يتجاوز الحديث العادي، وأداء الحاجات العاجلة إلى التفكير من جهة والجمال من جهة أخرى. فالأحاديث

العادية ولغة التخاطب لا تعنينا في درس الأدب العربي وتاريخه؛ إذ إنَّ ذلك لا يكون لدرس الأدب إلَّا عِنْدَمَا يكونُ في هذه الأحاديث لذة فنية خاصة.

فالواقع أننا لا نستطيع — مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي — أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني، والذي لا شك فيه هو أن أقدم نص يمكن أن نطمئن إليه هو القرآن. القرآن: ليس شعرًا؛ لأنَّه لم يتقيَّد بقيوده، وليس نثرًا لأنَّه مُقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره، قيود يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة، فهو إذن كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ، وهو وحيد في بابِه لم يكن قبله ولم يكن بعده مثله، ولم يُحاول أحد أن يأتي بمثله، وتحدى النَّاس أن يُحاكوه وأنذرهم أن لن يجدوا إلى ذلك سبيلًا. فأراح الخطباء أنفسهم من هذه المُحاولة المستحيلة التي عدوها خروجًا على الدين.

ولما كانت «المحاكاة» من أهم الأسباب للإنتاج الأدبي؛ فإذا قال الشاعر البليغ قصيدة أعجب الناس بها، فمنهم من يرويها، ومنهم من يُحاول أن يُحاكيها ويأتي بمثلها، ولما كان القرآن مُستحيل المحاكاة؛ فمن الحق علينا أن نضعه في مقامه الخاص الذي لا يصحُّ أن يُقاس به شيء آخر، وأن نبحث عن «النثر العربي».

النثر الجاهلي: وليس هو بالنثر في المعنى الذي حددته، ومع ذلك فقد كان للجاهلية نثر خاص، لم يصل إلينا لضعف الذاكرة، وخلوه من الوزن، هذا النثر هو «الخطابة» وليس من شك أن ما كان يقع في حياة العرب الجاهلية من خُصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم، وكان الخطباء الناطقون بلسان القبائل يحِرِّصون على أن يُعجبوا السامعين لا أن يقنعوهم فحسب، بل أن يُثيروا فيهم لذة فنية.

ومتى وُجدت هذه الفكرة فقد وُجدَ الجمال الفني، ولكن هذه الخطابة لم يرد إلينا شيء منها نثق به، ورُبَّما كان من السهل أن نتصور هذه الخطابة تصويرًا مُقارِبًا عندما نقرأ كتب السِّير وما فيها من خطابة وأحاديث.

النثر في صدر الإسلام: قَوِيَ فنُّ الخطابة لأسباب الحوار ومُحاولة الإقناع، سواء كان موضوعه الدين أو السياسة أو الخصومات المُختلفة. وبالطبع، احتاج المسلمون إلى أن يكتبوا، وكتب النبيُّ رسائلَ، وكتب الخُلفاءُ مِنْ بعده، ولكنها كانت تُكتب مُختصرة لا يُقصد منها إلا مُجرد الإقناع في غير تفنن أو إثارة لجمال فني خاص، فكانت الرِّسائل قصيرة ليس فيها التفصيل، ولا المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء من حيث الألفاظ.

إنما في منتصف القرن الأول للهجرة كانت الفتوح قد تقدَّمت كثيرًا، وكان العرب بدءوا يتصلون بغيرهم من الأُمَم، وكانت المشاكِلُ السياسية والاجتماعية قد كَثُرَتْ حتَّى هدمت نظام الخلافة، وأقامت نظام الملك. وكانَ هذا قد أنشأ الأحزاب السياسية ... إلى جانب هذا التطور، نشأت أشياء أخرى من الناحية العقلية، فأُسْلِمَ كثير من الأُمَمِ الأجنبية، وتعلَّموا العربية ودرسوا الدين الجديد، واختلط بهم العرب، وأخذوا نُظْمَهُم السياسية والاجتماعية والأدبية. واتصل المسلمون بغيرهم في الجهة الدينية، ونشأت العلاقات بين أنصار الديانات الأخرى وبين المسلمين، وقامت بينهم محاجات.

وأخذ العرب يُقيمون حضارة جديدة على أسس الحضارة القديمة؛ أي إنَّ العقل العربي السانج في الجاهلية، وجد أمامه مشاكل حقيقية منها ما يمس الدين والحضارة، ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية، ثم وجد أمامه مسائل فلسفية أثارها الفلاسفة مع من اتصل بهم عندما عرف العربُ بقايا فلاسفة الفرس واليونان.

لم يكن بُدُّ للعربي أن يُفكر ويشترك في التعبير عنها بلُغَتِهِ، ولا بدُّ له أن يُناقش في المسائل السياسية والدينية. ومن أهم الصفات التي تتصف بها الأممُ عندما تبدأ حياة حضرية بعد حياة بدوية أن تروي قديمها، وتُظهر لنفسها ولغيرها من الأمم أنها ذات مجد ومكانة قديمة. وإذن؛ اضطرت العرب أن يكون لها تاريخ تُعبر فيه عن تاريخها، كما يُعبر الفُرسُ واليونانُ عن تاريخهم.

ولا يستطيع الشَّعْرُ بحالٍ أن يُعبر عن هذه المعاني الجديدة، ويبسط الرأي السياسي والديني والفلسفي، ويقص التاريخ قصصاً واسعاً مُفصَّلاً؛ لذلك قام النثر للمُحاورة والمُناظرة، ووَصَف التاريخ والعلوم. ففي هذا العصر، وجد النثر الأسباب التي مكنته أن يقوى من جهة، وأن تنشأ له فنون جديدة من جهة أخرى. وما قوي فيه إنما هو الخطابة التي كانت موجودة في الجاهلية، وأما الذي نشأ فيه جديداً فهو هذه الفنون التي تُعبر عن هذه المعاني عن التاريخ والمناظرات العلمية وغيرها.

إذن؛ فالنثر العربي ليس لغة التخاطب أو الحديث العادي، والذي لا يُعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هي عاطفة أو شعور، بل من حيث هي صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير. هذا النثر أثر من آثار الحياة الإسلامية الجديدة ظهر في الإسلام ولم يكن موجوداً.

هذه الأسباب التي دعت لوجوده أسباب طبيعة لم تكن لأن أمة أعارت العرب النثر، بل هو فنٌ دعت إليه حاجة الحياة العربية؛ ولذلك يجب أن ننزع من نفوسنا أن العرب استعارت النثر من غيرها من الأمم، ولكن ليس معنى هذا أن هذا النثر بعيد عن الفُرس واليونان، بل كان عربيَّ النشأة إنما تأثر بهؤلاء وتطور بفضل اتصال العرب بتلك الأمم.

أسلمت هذه الأمم الأجنبية وتعلَّم كثيرون اللغة العربية؛ فكتبوا بها

فلم تستطع هذه الطائفة أن تتجرد من وطنيتها، إنما عندما تعلم اليوناني والفارسي العربيّة أدخل ما ورثه عن قوميتيه، كما أنه تأثر بما فيها من ثقافة عربية خالصة، فكان مزاجًا لا نقول إنه عربي خالص، أو يوناني، أو فارسي خالص.

وأي هذين العنصرين كان أقوى تأثيرًا في النثر العربي، الفرس أم اليونان؟ إن أكثر المستشرقين يميلون إلى أن تأثير الفرس أقوى؛ بدليل أن أكثر الذين كتبوا نثرًا في الإسلام (في العصر الأموي والعباسي) كانوا من الموالي وهؤلاء من الفرس، وها هو «ابن المقفع» الفارسي زعيم الكتاب.

ولكن هنالك قوم آخرون — وأنا منهم — يرون أن التأثير اليوناني كان أقوى رغم أن كثرة الكتاب من الفارسيين؛ وذلك لأن الثقافة اليونانية كانت قديمة العهد في هذه البلاد منذ أيام الإسكندر — أي: القرن الثالث قبل الميلاد — ولم ينته القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للشرق الأدنى، ولم يكد يتقدم التاريخ المسيحي حتى كانت كل بلاد الشرق الأدنى في مصر وسوريا والعراق، وقد انبثت فيها مدارس يونانية تعلّم الفلسفة، والأدب، وعلوم اليونان.

وعندما جاء الإسلام وخرج العرب فاتحين صادفوا تلك البلاد، وقد انبثت فيها هذه المدارس اليونانية؛ فتركت في عقول المصريين، والشاميين، والعراقيين ... آثارًا لا يمكن أن تمحى إلا مع الزمن ...

هذه الثقافة اليونانية التي استمرت في الشرق تسعة قرون، ولم يقف أمرها على الشام والجزيرة والعراق ومصر، بل هجمت على البلاد الفارسية نفسها منذ عهد البطالسة في مصر والسلوقيين في آسيا.

وأخذت الثقافة اليونانية تنبعث في الفرس حتى وصلت إلى أقصى الشرق، وفي عهد الإمبراطورية الرومانية اشتدت الصلة بين اليونان

والفرس، وتعمقت الثقافة اليونانية في فارس. وفي أواخر هذا العصر، عندما ظهرت المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية وأُغلقت المعابد الوثنية؛ هاجرت الثقافة اليونانية إلى بلاد الفرس، فوجدت منها حماية ونصيرًا ولقيت من الأكاسرة تعضيذاً ... فتأثر العقل الفارسيُّ بها إلى حد أن ابن المقفع — زعيم كتّاب العرب والفرس — كان عظيم الحظ من الثقافة اليونانية؛ حتى قيل إنه ترجم آثار اليونان. ونحن نعلم أن لليونان أدباً كان يُدرّس في الإسكندرية، وغزة، والرها، وأنطاكية قبل أن تستقر الثقافة اليونانية بفارس.

والثقافة الفارسية محدودة، فإن كان للفرس أدب؛ فالواقع أن هذا الأدب هو في عصر اتصال العرب بالفرس لم يكن عظيمًا، والذي تُرجم إلى الآداب العربية من الفارسية قليلٌ مع كثرة ما تُرجم من الآداب اليونانية. وتنحصر الآداب الفارسية في: كتاب كليله وديمّنة، وكتاب الأدب الكبير، وكتاب الأدب الصغير. والحكم التي يشتمل عليها شعر بعض الشعراء؛ كأبي العتاهية، وبعض الكتب السياسية. هذا هو كل ما يُمكن أن يُقال: إنه أدب فارسي وصل إلى العرب في القرنين الثالث والثاني، بينما وصل إلى العرب عن اليونان الفلسفة، ونُظم مختلفة في التفكير لها أثرها في النحو والبيان وغيرهما من الفنون.

والواقع أن الفُرس أخذوا من العرب أكثر مما أعطوهم، وحسبنا أن نَعلم أن الأدب الفارسيّ الحي إنما نشأ بعد أن اتصل الفُرس بالعرب، وبعد أن تعلموا العربية، ولم يُعطِ الفرس للنثر العربي في التأثير بمقدار ما يتصوره المُستشرقون، وما كان يراه الشعوبية من الفرس الذين قالوا: إن العرب مَدِينَةٌ للفرس بكل شيء! ولا شك أن العرب مَدِينُونَ للفرس بالكثير من المادّيات والنُظم السّياسية وغيرها، وأمّا في الأدب فأنا مُقتصد جدًا، وفي رأيي أن العرب تدين في أدبها إلى

الأمة اليونانية.

هذا إلى أن أكثر الكُتَّاب الذين بدءوا يكتبون النثر لم يكونوا من الفرس، بل كانوا من الشام والجزيرة ومصر؛ فهم إما يونان أو ساميون ثقافتهم يونانية.

ولنسأل: أليس يُوجد نثر عربي غير الخطابة لم يتأثر بالفارسية أو اليونانية؟ فإذا استطعنا الظفر بهذا النثر كان من السهل علينا أن نرى الفرق. ووجود هذا النثر ليس صعباً، بل يكفي أن نقرأ النقائض فنجد فيه إشارة إلى أيام العرب، ويضطر المفسرون إلى أن يقصوا علينا أخبار هذه الأيام التي كان العرب يقولون: إنها وقعت بين «داحس والغبراء»، و«حرب البسوس»، و«يوم الكلاب»، وما كان بين «عامر وتميم»، و«أيام الفجار» وغيرها.

كل هذه القصص كانت تُروى في مدينتي البصرة والكوفة عندما استقرَّ العربُ في هذين المصرين، وكان الذين يتحدثون بها هم الأعرابُ. والذي يظهر في هذه القصص ليست العقلية اليونانية ولا الفارسية، بل العقلية العربية التي تُريد أن تثبت للنابهين من القبائل أعظم حظ من الشجاعة.

في هذه القصص التي كانت تُقَصُّ أيام العرب ومغازي النبي وأوائل الفتح الإسلامي والفتن الإسلامية أيام عثمان العربية الخالصة، ترى النثر العربي الخالص، فإذا استطعنا أن نُحدِّد هذا النثر كان من السَّهل علينا أن نُوازنَ بينه وبين نثر الكُتَّاب الذين ظهروا في القرنين (الثاني والثالث)، وهم المتصلون بهذا المزاج من الثقافة اليونانية والفارسية.

وتُهدينا هذه الموازنة إلى التأثيرات المُختلفة التي أحدثتها الثقافات المختلفة في النثر العربي. فنحنُ عندما نُوازن بين كتابة الكُتَّاب من المَوالِي الذين كانوا من أصل سرياني أو شامي أو مِصري، والذين

تأثروا بالثقافة اليونانية، وبين الموالى الذين كانوا من أصل فارسي نتبين الطابع اليوناني من الطابع الفارسي.

ألقى الأستاذ وليم مَارسيه William Marçais مُحاضرة في أصل النثر العربي ختمها بهذا السؤال: «إلى أي حد كان تأثير اللغة الفارسية فيما كتب ابن المقفع وفيما ترجم؟ أكانت ترجمته حرفيةً يغلب عليها الطابع الفارسي أم كانت واسعة يغلب عليها الطابع العربي؟» وأظهر الأستاذُ أسفَّهُ، وقال: «إنَّ الجواب عن هذا السؤال ليس ميسورًا الآن؛ إذ إنَّ الذين يستطيعون الرَّدَّ عنه هم الذين أتقنوا العربية والفهلوية، ومن سوء الحظ أن الأصول التي ترجم عنها ابن المقفع قد ضاعت.»

ومع هذا، فنستطيع أن نقول إنَّ الجواب عن سؤال مارسيه ميسورٌ رغم ضياع الأصول؛ إذ نستطيع أن نجدُه في الأدب الصغير والأدب الكبير.

عندما تقرأون كتابة ابن المقفع تجدون فيها شيئاً من الالتواء والدوران، ونُحِسُّ ونحن نقرأ أنَّ الكاتبَ يَجِدُ مشقة في التعبير عن المعاني التي يُحِسُّها، ونُحِسُّ هذا الضعف الذي يكلفه الكاتب للعربية. نُحِسُّه لا بعقولنا فحسب، بل بآذاننا، فنجدُ أنَّ المقفع يُكَلِّف النحو العربي تكاليفَ رُبَّمَا لم يكن النحو العربي مُستعدًّا لأنَّ يحتملها.

وإنَّ ابن المقفع نفسه رغم أنه زعيم الكُتَّاب وصاحب الآيات، وواضع المثل الأعلى للكتابة، لم يكن عظيم الحظِّ من الفصاحة والنحو العربي. وإذا وازناً بينه وبين ما كتب أصحاب النحو، وجدنا أنه مستشرق يحسن اللغة العربية والفارسية، يبذل جهداً فيُوفِّق كثيراً ويخطئ أحياناً.